عودة ديك الجن إلى الأرض

محمد علي شمس الدين

حين أحثو من التراب والحلم شيئاً على صورتي
وأتركها فوق تلٍّ من الريح تبكي
وتندب أحوالها
سأرفع من بنفسجة الدم شاهدةً فوق قبري
وأجعلها سبباً لاقتراب الحنينْ .
أقول لكم أيها الواقفون على حفرة للوداع
أقول لكم يا صدى وحشتي
أنظروا :
إن روحي مشرّدةٌ
ودمي لا يضيء الفراغْ

* * * *

ضائعاً حيثما ضيّعوني
جائعاً
حيث تعرى الفصولْ
أقول لهذا القميص الشتائي :
كن رايتي في فراغ الحقولْ
فالسواقي معبّأةٌ
ودمي فائر كالنواعير عند اشتداد السيولْ
كتبوا فوق جبّانة العاشقين : « انتهى . . . »
لكي يمنعوني / فأقبلتُ
بي لوعة الشهداءْ
وشيء هو الصمت يقرع هذا الخواءْ
وها انني أستفزّ عداوتهم
لكي أستفزّ محبتهم . . .
أنا قاسم الرعد بين الدماءْ
سأكسر في الأرض ميزانها
وأطلق في السهل وعْل البكاءْ
وكي أستردّ من الشمس عدّاد قلبي
سيلزم أن أستردّ الفضاءْ
وأن أضبط الدمع في نبعه الأزليّ الذي لا يزولْ
فالسواقي معبّأةٌ
ودمي فائر كالنواعير عند اشتداد السيول
قلت للغيم فوق الروابي : احتضنّي
قلت للغيم يا أبتاهُ احتضن غربتي
قلت للغيم شُدّ المراسي ولا تنتشرْ

ليس لي ساعة
لي من الوقت أن أنتظرْ
حيث تعرى الثواني
حيث لا تكتسي الروح إلا بأوجاعها
ليس لي ساعة
لي من الساعة العقربانِ
حيث وجهي كبدر الزوالْ
ليس لي طالع
إن برجي هو السُمُّ
كأسك يا سيدي
كأسك يا أعذب الأصدقاءْ .

* * *

شربنا
سكبنا على الجرح شيئاً
سكبنا على الأقحوانة نصف النبيذ
سكبنا على جسد طاهر خمرة الله
ودرنا
تدور على خطونا الكائناتُ
ويحتضن الشيء أضداده :
الطفل والساعة
الذئب والمرأة النائمهْ
وها أنتِ نائمة بين قلبي وبين الجدارْ
دائماً تبرد الكلمات على قدميكِ
دائماً تبرد أطراف هذا الإله الجميلْ
دائماً يسبح القلب في دمه الحجريّ ولا تصلين
هذه سريرتكِ الأبديّة
وجهاكِ
عينك الخرزيّة في طوطمٍ
جالسٍ
تحت
وجه
القتيل .
. . . .
. . . .
تنامينَ ـ نامي :

هذا حدائي فوق سريرك :
حين أعاني مرض الصحو
وتزهو أعصابي
حين أداري التعب الواضح
وأعاني طيران العقل الكابي
وهبوط الروح العمياء
أهوي
في ناري طفولتكِ الزرقاءْ
وأدور فأضرب فوق الدفّ جناحي
صعلوكاً أبحث عمن يشعل أطراف دمي
كي أحرس طفل النوم النائمْ .
أوقفت الزهرة في شفتيكِ
وأعددت الكأس المزدوجهْ
آتيك إذا اعتكر النجم
وصار مزاجي ليليا
بهدوء أجرح قلبي
أتركه يقطر قطرته الأولى
فوق الزهرةِ
بين الكأسين .
تبتلّ الزهرة
تبقى شفتي فارغةً
وأنا أجلس مبتعداً
. . . .
. . . .
ـ : مَنْ هناك ؟
صاحب هذا البكاء المبكرّ ؟
من العابر المستريب ؟
ـ هذا أنا
لا أحد
لا أحد
أتعرف قبر سيّدتي ؟
قبر « نسرين » في طرف التلّ ؟
ـ إنها في سرير من الورد
نائمة منذ ألف من السنواتْ
على كتف النهر
تحرسها سبعة من ذئاب الفلاةْ

ولا تستقيم الطريق إلى دارها
فمن أنت يا عابر الليل
من أنت ؟
ـ : أنا ؟
لا أحد
لا أحد
ولكنْ :
أما زال في قلبها وردة للأمان ؟
ـ إن في قلبها شوكة
يقال لها شوكة الحب
ـ : وهل شفتاها على زهرة السر معقودتان ؟
ـ : تفتح أكمامها مرّةً
ثم تنسى .
ـ : وهل طار من دمها
الطائر الذهبي الأليف ؟
ـ : إنه حائم في فراغ الحقولْ
لم تبخّره شمس فينسى
ولا شربته المزارع حتى يزولْ
ـ : وهل نحرها نازف بالجراح الصغيرة ؟
ـ : ثمّ بعض النجومْ
. . . .
. . . .
عرفتُك يا عابر الليل
عرفتُك
أنت عبد السلام إذن ! !
ـ أنا ؟
لا أحد
لا أحد
مات عبد السلام
ـ : عرفتُك يا عابر الليل
تقدّم
وخذ صدرها
لتسمع نبض النجوم
تقدّم أيها العابر المستريب
ولامس غرابة أحلامها .

* * *

تنامين ـ نامي
مطهرة أنت بين النساءِ
مطهّرة أنت دوني
وفي ظلمتي
مطهّرة في الضباب العظيم

ولكنني ظامىء للدم الآدميّ
إلى خمرةٍ في خوابي الجحيمْ
فمن واقفٌ في مدى شهوتي
كالحصان القديم ؟
شهوتي كالحصانِ
وأنتِ ممهدة كالمراعي
وأنا جائع ويتيمْ
يلمع العشبُ فوق سرّتكِ الأنثويّة كالسيف
سأرعى إذنْ كل هذا الحشيش الربيعيّ
مثل جرثومة

أفتُك بالأصغر الأصغر المنتهي من رذاذ النساءْ
ومن زغب الصدر والفخذ تحت الرداءْ
وأشرب ما يترك الزغب المشتهى من حنين المساءْ
أنا طائر الجنّ
ديك
إله
وثور بقرنين منتصبين
ونار مؤججة في الجسد
أنقر النهدَ
أدميه
أرفع رأسي إلى الله
أسأله : مَنْ أنا ؟
أحبّكِ
لا شيء يعلو جناحي
وعرفي كتاج الملوك
وحين تقاسمين الجنّ أفراحها
أنثني
ثم آتيكِ منطفئاً
لتشعلني ناركِ الأزليّة حتى الأبد
سأهذي
وأعطيكِ عقلي
منطق الحكماء الرصين
وأمنحكِ المتعة اللغويّة
أسمّيكِ « نسرين » أو « لوثة العاشقين » .
أراكِ وأنسى
وأترك للهذيان الكلامْ
أنا ببغاء الكلامْ
أنا الببغاءُ . .
. . . . الـ . . بـ . . غـ . . اءُ . . البـ . .
غـ . . ا . . ءُ
قتلتكِ ـ إني ـ قتلتكِ ـ إني ـ أحبّكِ

موتي إلى آخر الحب
موتي إلى آخر الموت أو
أوّل الحب
كوني ذبابة عقلي
فراشته الطائشه
وادخلي في دوائر ضوئي
أنا الهذيان . .
. . . الـ . . ذ . . يان . . الـ . . ذ . .
يـ . . ا . . نْ
لم يعد ممكناً أن أرى
في سكون البحيرات شيئاً
سوى الهذيان . . الـ . . هـ . . ذيان . . .
الهذيانْ . . . .
اكشفي لون عينيكِ لي
وفي أيّما زمنٍ حائرٍ يخفق الطائران
وانظري في عذابي
هذه الروح مثقوبة مثل ناي المغنّي
إن روحي مشرّدة تحت سبعين ألفاً من
السنوات
أنا = سبعون ألفاً من العاشقين
أقبلوا يندبون
أنت = سيّدتي ومسيحي
كربلاء التي طاف ميزانها في شتاءات قمْ
وقلبي الذي سوف أقطفه عنوةً في المساء
كتفّاحة بشريّة
وكأسي التي حين أشطرها
أرى وجهكِ المصطفى
وأبصر ما حيّر العقلاء وحيّرني :
زمناً مظلماً
تنامين فيه مجلوّةً
تحت سقفٍ خفيض من النار
أو من لظى الأرجوان
تنامين هادئةً
وحولكِ تضطرب الكائنات
وعيناكِ في نصف إغماضةٍ
كسرّين يقتربانْ
واتيك فى ليلةٍ
دونما قمرٍ أو رقيب
فألمس نهديكِ
حتى أحرّك شهوتكِ المبهمةْ
وأدخل منتشراً في الخلايا
بطيئاً

كجرثومة مغرمه
ألمس الأنف
والنقطة المستقرّة في طرف العين
والإبط عند انحناءته
القمر
الأسود
الحلمة
خرز الظهر
ما تحته
الهيل في الغابة المظلمه
ألمس الروح في عمقها
(فأدرك ما سبب الشعر والموت)

وأضرب أوتارك الجسدية ضرباً خفيفاً
فتستيقظ الأرض من نومها
ويلحقني الغثيان العظيم
أموت لسبعين ألفاً من السنوات
وأنهض كالثور محتشداً بالحنينْ
فأذرع سهلاً كبيراً كنفسي
أفتّش عمن يحرّضني
أو يشاركني فيكِ
حتى إذا جاء دور الذبابِ
(الذباب هم الآخرون)
وحوّم حولكِ طيف كثيف توهمت أسماءه
أصوّب قرني خفيفاً إلى النحر في شمسك المعتمه
وأرفع كأسي إلى الله
طافحةً من دم الجمجمه .
. . . .
. . . . .
شربنا
سكبنا على القبر شيئاً
سكبنا على الأقحوانة نصف النبيذ
سكبنا على جسدٍ طاهر خمرة الله
مطّهرة أنتِ بين النساء
مطهّرة أنت دوني
وفي خنجري :
أيها الخنجر المرصّع في القلب
أيتها الشوكة البنفسجية في اللحم الشفّاف
ويا أيها الندم الباطل الأبدي
إن دعواي ساقطة مثل كفّي
وهذا بكائي على شرفة في الفراغ :

(رأى نفسه هائماً
يزرب الدم من شفتيه ومن لحيته
هاشلاً في البراري
يقول :)
أجمل نبع في الأرض = الدمعة في العينْ
أجمل ساقية في الجسد = الشريانْ
أجمل طفلٍ = ينهض مقطوع القدمين
أجمل أنثى = عارية في حفرتها
أجمل أسماء الله = الخنجر
يا ألله
تصطكّ عظامي في الريح وتصفُر
كعظام حصان تركته القافلة العجلى
ينفق عند مسيل الماءْ
لو كان يقاربني الذئب العجلان لأوحش وحشته
لو أن غراباً أبصر وجهي
لتملكه الذعر وصفّق مبتعدا
أنذا أرحل نحو الدمن المهجورة
كفراشات الهذيان أطوف الهاويتين :
الحب ـ الموت
وأصغي للطيران :
طيران القلب الطائر
طيران الأحلام الزرقاء
طيران الأيام السهلة والساعات الجوفاء
طيران ثياب الأشجار
طيران فراشات الحمّى الذهبيّه
أجعل قلبي كأساً فوق المنضدة الخشبيّه
وحدي
في الذكرى والمرآة
كأساً

في
الموتِ
وأشربه
قلباً
ينبض
في
صندوق
زجاج
عيناً
تدمع
في
كف

الله .
. . . .
. . . .
سلاماً لسيّدتي
سلاماً لها في الضباب العظيمْ
سلاماً لها حيثما ضيّعتني
سلاماً لها في قرار الجحيمْ . .
. . . .
. . . .
. . .
يعود الربيع الذي عاد
يرتجف النسغ في الكائنات
ويمشي المحبون زوجين زوجين
أمشي وحيداً
وظلي يراقبني كالغرابْ
سائراً
طائراً
في الفضاء ـ الخرابْ .
من رآني أمدّ جناحي إلى الشرقِ
أقطع هذا المدى خلسةً
ثم أهوي على شجرة
وأنظر حولي
أرى النهر شيئاً سوى النهرِ
في الماء ورد مُسجّى
والنواعير تلصق أوجاعها
وحمص اكتست بالسواد
وأسأل :
هل يعرف الناس قبري ؟
فيأخذني من يدي شاهدان
يقولان : أنظرْ
فأبصر في القبر سيدة مثل زنبقة الماء
جالسة في انتظاري
وعارية في مهبّ الزمان
وقد مسّها البرد مساً خفيفاً
ونقّع في وجنتيها الندى قلبه
فأخلع ثوبي لأستر أقدامها
وفي السهل كبشان يقتتلان(*)
بيروت
١٩٧٨ ـ ٧٩ / ٨٠ .

(*) من مجموعة تصدر عن دار الآداب قريباً